السّيرةُ النّبويّة للبراعم

(٣٠)

فِي بِدَايَاتِ رِحْلَةِ الهِجْرَةِ

الدكتور
محمد عمر الحاجي

الطبعة الأولى

جميع الحقوق محفوظة

يمنع طبع أو إخراج هذا الكتاب أو أي جزء منه بأي شكل من أشكال الطباعة أو النسخ أو التصوير أو الترجمة أو التسجيل المرئي والمسموع أو الاختزان بالحاسبات الالكترونية وغيرها من الحقوق إلا بإذن مكتوب من دار المكتبي بدمشق .

دار المكتبي
للطباعة والنشر والتوزيع
www.almaktabi.com

سورية ـ دمشق ـ حلبوني ـ جادة ابن سينا
ص.ب ٣١٤٢٦ ـ هاتف : ٢٢٤٨٤٣٣ ـ فاكس : ٢٢٤٨٤٣٢
e-mail: almaktabi@mail.sy

مَعَ الرَّسُولِ ﷺ فِي طَرِيْقِ الهِجْرَةِ

تَعَالَوْا أَيُّهَا الأَحِبَّةُ البَرَاعِمُ لِنَصْحَبَ رَسُوْلَ اللهِ ﷺ في طَرِيْقِ رِحْلَةِ الهِجْرَةِ مِنْ مَكَّة إلىٰ المَدِيْنَةِ ، وَنَرَىٰ عَنْ قُرْبٍ مَا حَدَثَ لَهُ ، وَلِصَاحِبِهِ أَبي بَكْرٍ رَضِيَ الله عَنْهُ .

بَعْدَ أَنْ خَرَجَا مِنْ بَيْتِ أَبي بَكْرٍ ، اتّجَهَا نحو غَارِ ثَوْرٍ ، أَيْ : نَحْوَ الجَنُوبِ ، عِلْماً أَنَّ المَدِيْنَةَ المُنَوَّرَةَ تَقَعُ شَمَالَ مَكَّةَ ، لَـٰكِنَّ الهَدَفَ مِنْ ذَلِكَ هُوَ تَضْلِيْل المُشْرِكِيْنَ .

وَلَمَّا وَصَلا إلى الغَارِ كَانَ الوَقتُ لَيْلاً ، فَدَخَل أَبُو بَكْرٍ قَبْلَ رَسُولِ اللهِ ﷺ ، وَرَاحَ يتلمَّس مَا فِيْهِ

خَوْفاً مِنْ أَنْ يَكُوْنَ هُنَاكَ حَيَّةٌ ، أَوْ سَبْعٌ ، وَمَا إلىٰ هُنَالِكَ مَمَّا يُمْكِنُ أَنْ تُؤْذِي الرَّسُولَ صَلَواتُ الله وَسَلامُهُ عليه ، وَقَدْ بَقِيَا في الغَارِ مُدَّةَ ثلاثَةِ أَيَّامٍ!!

* * *

فَمَاذَا فَعَلَ أَهْلُ مَكَّةَ ؟!

لَقَدْ طَارَ صَوَابُ المُشْرِكِيْنَ وَهُمْ يَبْحثُونَ عَنِ الرَّسُولِ ﷺ وصَاحِبِهِ ، ذَهَبُوا إلى دَارِ أَبي بَكْرٍ ، فَلَمَّا طَرَقُوا البَابَ ؛ خَرَجَتِ الفتاةُ أَسْمَاءُ ، فَسَأَلَها أَبُو جَهْلٍ عَنِ أَبِيْهَا ، فَقَالَتْ : لا أَدْرِي ، فَلَطَمَهَا بَيَدِهِ لَطْمَةً أَوْقَعَتْها أَرْضَاً!

فانْطَلَقُوا في الوِدْيَانِ... . وَصَعِدُوا أَعَالِي

الجِبَالِ... وَفَتَّشُوا كُلَّ الأمْكِنَةِ ، لَـٰكِنَّهُمْ لَمْ يَعْثُروا عَلَى شيءٍ ممَّا يُرِيْدُونَ!

فَلَجَؤُوا إلىٰ الإغْرَاءَاتِ المَادِّيَّةِ ، فَأَعْلَنُوا في نَوَادِيْهِمْ بِأَنَّ مَنْ يَأْتِي بِرَأْسِ مُحَمَّدٍ حَيَّاً ، أَوْ مَيْتاً ؛ فَلَهُ مِئَةُ نَاقةٍ!

عِنْـدَ ذَلِـكَ انْطَلَـقَ الفِتْيَـانُ ، والفُـرْسَـانُ يَبْحَثُوْنَ ، عَسَىٰ أَنْ يَنَالُوا الجَائِزَةَ الكَبِيْرَةَ .

لَـٰكِنْ لَمْ يَخْطُرْ بِبَالِ أَحَدِهِمْ أنْ يَكُونَ الرَّسُولُ قَدْ غَيَّر الاتِّجَاهَ تَمَاماً .

ثُمَّ اسْتَعانُوا بِرَجُلٍ خَبِيْرٍ بِالأَثَرِ ، فَرَاحَ الرَّجُل يَتَتَبَّعُ الأَثَر.. وَالنّاسُ يَمْشُونَ وَرَاءَهُ ، وَلَمَّا وَصَلَ إلىٰ قُرْبِ بَابِ غَارِ ثَوْرٍ ، انْقَطَعَ الأَثَرُ تَمَاماً ، فأُصِيْبَ الرَّجُلُ بِالحَيْرَةِ!

* * *

وَفِي الغَارِ

وَكَانَ الرَّسُولُ ﷺ مَعَ أَبي بَكْرٍ في الغَارِ ، فَلَمَّا اقْتَرَب المُشْرِكُوْنَ مِنَ الغَارِ ، خَافَ أَبُو بَكْرٍ ، فَقَالَ : يَا رَسُوْلَ الله! لَوْ أَنَّ أَحَدَهُمْ نَظَرَ تَحْتَ قَدَمَيْهِ ؛ لأَبْصَرَنَا .

لَـٰكِنَّ صَاحِبَ القَلْبِ المُتَعَلِّقِ بِالله قَالَ لَهُ : « يَا أَبَا بَكْرٍ! مَا ظَنُّكَ باثْنَيْنِ اللهُ ثَالِثُهُمَا ؟! » .

وَأَنْزَلَ الله في ذلك قَوْلَه : ﴿ إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ ٱللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ثَانِىَ ٱثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِى ٱلْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَٰحِبِهِۦ لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا ۖ فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُۥ

بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلسُّفْلَىٰ ۗ وَكَلِمَةُ ٱللَّهِ هِىَ ٱلْعُلْيَا ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾[1] .

* * *

(١) سورة التوبة : ٤٠ .

حَمَامَةٌ... وَعَنْكَبُوتٌ!!

وَنَظَر الخَبِيْرُ بِالآثارِ إلىٰ الغَارِ ، وَقَالَ لِمَنْ وَرَاءَهُ : لَوْلا أَنِّي أَرَىٰ بَيْضَ حَمَامَةٍ في هَذَا العُشِّ ، وَنَسْجَ عَنْكَبُوتٍ عَلَىٰ فَمِ هَذَا الغَار ؛ لَقُلْتُ : إِنَّ محمّداً هُنَا دَاخِلَ الغَارِ!

وَقهْقَه أَبُو جَهْلٍ مِنْ هَذَا الكَلام ، وَقَالَ : وَكَيْفَ يَدْخُلُ الرَّجُلُ مِنْ بَابِ الغَارِ دُوْنَ أَنْ يَتَمَزَّقَ بَيْتُ العَنْكَبُوتِ ، أَوْ تَتكَسَّرَ بَيْضَاتُ الحَمَامِ ؟!

وَهَذَا إِنْ دَلَّنا عَلَىٰ شَيءٍ يَا أَحِبَّتي البَرَاعِمَ! فَإِنَّمَا يَدُلُّنَا عَلَىٰ أَنَّ الله سُبْحَانَهُ إِذَا أَرَادَ أَنْ يَحْمِي أَحَداً مَا ؛ حَمَاهُ عَنْ طَرِيْقِ أَيِّ جُنْدِيٍّ مِنْ جُنُودِهِ ،

وَمَا أَكْثَرَهُمْ فِي هَذَا الْكَوْن! كَمَا قَالَ سُبْحَانَهُ : ﴿وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ﴾[1] .

فَقَالَ بَعْضُهُمْ لأَبي جَهْلٍ : فَمَاذَا نَفْعَل بَعْدُ ؟!

هَزَّ أَبُو جَهْلٍ رَأْسَهُ ، ثُمَّ قَالَ : فَلا بُدَّ أَنَّ مُحَمَّداً قَدْ هَاجَرَ دُوْنَ أَنْ نَرَاهُ ، وَلِذَلِكَ فَلْنَعُدْ إِلىٰ مَكَّة .

* * *

(١) سورة المدثر : ٣١ .

بُطُوْلَةُ ذَاتِ النِّطَاقَيْنِ

لَـٰكِنْ يَا أَحِبَّتي البَرَاعِمَ قَدْ يَخْطُرُ بِالْبَالِ خَاطِرٌ : وَكَيْفَ كَانَ الرَّسُولُ وَصَاحِبُهُ يَأْكلاَنِ طِيلَةَ فَتْرَةِ الاخْتِبَاءِ في الغَارِ ؟

لَقَدْ كَانَتْ أَسْمَاءِ بِنْتُ أَبي بَكْرٍ تَحْمِلُ الطَّعَامَ مِنْ مَكَّةَ إلىٰ غَارِ ثَوْرٍ ، وَهِيَ تَتَحَمَّلُ المَخَاطِرَ ، وَحَـرارَةَ الشَّمْـسِ الـلاَّهِبَـةِ ، وَالخَـوْفِ مِـنَ المُشْرِكِيْنَ ، وَمَا إلىٰ هُنَالِكَ .

وَذَاتَ يَوْمٍ ، وَبَيْنَما كَانَتْ تَسِيْرُ في ذَلِكُمُ الطَّرِيقِ الجَبَلِيِّ العَسِيْرِ ؛ إِذَا بالصُّرَّة الَّتي تَحْمِلُ

فِيْهَا الطَّعَامَ قَدْ تَمَزَّقَتْ ، فَمَاذَا سَتَفْعَلُ أَسْمَاءُ ؟

قَطَعَتْ قِطْعَةً مِنْ نِطَاقِهَا ، وَرَبَطَتْ بِهِ فَمَ الصُّرَّةِ وَالجِرَابِ ، وَكَانَ ذَلِكَ سَبَبَ تَسْمِيَتِهَا : (ذَاتُ النِّطاقَيْنِ) رَضِيَ الله عَنْها وَأرْضَاهَا .

* * *

وَأَمَّا البَطَلُ عَلِيٌّ

وَبَعْدَ أَنْ قَامَ عَلِيٌّ ـ رَضِيَ الله عَنْهُ ـ بِالمُهِمَّة الشَّاقَّةِ الخَطِرَةِ ، وَهِيَ النَّوْمُ عَلَىٰ فِرَاشِ رَسُوْلِ اللهِ أَرَادَ أَنْ يَخْرُجَ مُهَاجِراً .

لَكِنَّ رَسُولَ اللهِ أَمَرَهُ أَنْ يَتَخَلَّف بَعْدَهُ بِمَكّة ، وَذَلِكَ لِكَيْ يُؤَدِّيَ عَنْ رَسُولِ الله الوَدَائِعَ الَّتي كَانَتْ عِنْدَهُ لِلنَّاسِ .

وَهَذَا تَنَاقُضٌ عَجِيْبٌ عِنْدَ المُشْرِكِيْنَ : فَهُمُ الَّذِيْنَ لَمْ يُؤْمِنُوا بِمَا جَاءَ بِهِ الرَّسُولُ ﷺ ، وَهُمُ الَّذِيْنَ رَفَضُوا اتِّبَاعَهُ.. ، وَهُم الَّذِيْنَ عَذَّبوا كَثِيْرَاً مِنْ أَتْبَاعِهِ ، وَمَعَ ذَلِكَ كَانُوا يَضَعُونَ أَمَانَاتِهِمْ

وَوَدائِعَهِمْ عِنْدَهُ ، وَذَلِكَ لِمَا يَعْلَمُونَ مِنْ صِدْقِهِ ، وَأَمَانتهِ صَلَوَاتُ الله وَسَلامُهُ عَلَيْهِ ، وَلِذَلِكَ كَانُوا يُلَقِّبُونَهُ ـ حَتَّىٰ قَبْلَ البِعْثَةِ ـ بالصَّادقِ الأَمِيْنِ .

* * *

الوَدَاعُ... الوَدَاعُ يَا مَكَّة!!

وَفي اليَوْمِ الرَّابِعِ مِنْ شَهْرِ رَبِيْع الأَوَّل ، خَرَجَ الرَّسُولُ ﷺ وصَاحِبُهُ مِنَ الغَارِ مُتَوَجِّهَيْنِ إِلىٰ المَدِيْنَةِ المُنَوَّرَةِ .

وَأَرَادَ الرَّسُولُ أَنْ يُوَدِّعَ بَلَدَهُ مَكَّةَ المُكَرَّمَةَ ، كَيْفَ لا ؟ وَهُوَ الَّذِي وُلِدَ ، وَتَرَعْرَعَ فِيها... وَهُوَ الَّذِي عَاشَ شَبَابَه فِيْهَا... وَهُوَ الَّذِي أُنْزِلَ عَلَيْهِ غَالِبِيَّةُ سُوَرِ القُرْآنِ الْكَرِيمْ فِيْهَا... وَهي الَّتي فيها الكَعْبةُ المُشَرَّفةُ ، وبَيْتُ اللهِ الحَرَام... وهي التي تَحْتَضِنُ رُفاتَ غَالبيَّةِ أَقْرِبائِه ، وأَصْحَابِه ، كَجَدِّهِ عَبْدِ المُطَّلِبِ ، وزَوْجِه خَدِيجَةَ رَضِي اللهُ

عَنْهَا ، وَعَمُّه أبي طَالِبٍ... ؟! فَوَقَفَ عَلَىٰ مَكَانٍ مُرْتَفِعٍ ، وَتَوَجَّهَ نَحْوَ مَكَّةَ ، ثُمَّ قَالَ :

« مَا أَطْيَبَكِ مِنْ بَلَدٍ ، وَأَحَبَّكِ إليَّ ، وَلَوْلا أَنَّ قَوْمِي أَخْرَجُوني مِنْكِ مَا سَكَنْتُ غَيْرَكِ » .

ثُمَّ رَفَعَ كَفَّيْهِ ـ صَلَواتُ الله وسَلامُه عليه وَالدُّمُوعُ تَسِيْلُ عَلَىٰ لِحْيَتِهِ الشَّرِيْفَةِ وَهُوَ يَقُولُ : « الْحَمْدُ للهِ الَّذِي خَلَقَنِي وَلَمْ أَكُ شَيئاً! اللهُمَّ أَعِنِّي عَلَىٰ هَوْلِ الدُّنيا ، وَبَوائِقِ الدَّهْرِ[1] ، وَمَصَائِبِ اللَّيالي ، والأَيَّام!

اللَّهُمَّ اصْحَبْنِي في سَفرِي ، وَاخْلُفْني في أَهْلِي ، وَبَارِكْ لِيْ فِيْمَا رَزَقْتَنِي ، وَلَكَ فَذَلِّلْنِي ، وَعَلَىٰ صَالِحِ خُلُقِي فَقَوِّمْنِي ، وَإِلَيْكَ رَبِّي فَحَبِّبْنِي ، وَإِلَىٰ النَّاسِ فَلا تَكِلْنِي ، أنتَ رَبُّ

---

(١) أي : شرُّ الدَّهر وغوائله .

المُسْتَضْعَفِيْنَ وَأَنْت رَبِّي ، أَعُوْذُ بِوَجْهِكَ الْكَرِيْمِ الَّذِي أَشْرَقَتْ لَهُ السَّمَواتُ ، والأَرْضُ ، وَكُشِفَتْ بِهِ الظُّلُماتُ ، وَصَلُحَ عَلَيْهِ أَمْرُ الأَوَّلِيْنَ ، وَالآخِرِيْنَ أَنْ تُحِلَّ عَلَيَّ غَضَبَكَ ، وَتُنْزِلَ بي سَخَطَكَ ، أَعُوْذُ بِكَ مِنْ زَوَالِ نِعْمَتِكَ ، وَفجأة نِقْمَتِكَ ، وَتَحوُّل عافِيَتِكَ ، وجَمِيْعِ سَخَطِكَ ، لَكَ العُقْبىٰ[1] حَتَّى تَرْضَى ، ولا حَوْلَ ، وَلا قُوَّةَ إلا بِكَ! » .

وَآخِرُ دَعْوَانَا أَنِ الحَمْدُ للهِ رَبِّ العَالَمِيْنَ

* * *

---

(١) أي : الآخرة ، والخاتمة .